

الفصل العاشر

فى أخبار ساقها التصنيف ونواد جرها التأليف(*)

□ لماذا بكى مسلمة ١٩ :

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دعا بنيه ، فكانوا أحد عشر ابناً ، وكان عنده مسلمة بن عبد الملك ، فأحضر عمر بن عبد العزيز أحد عشر ابناً وأحضر أحد عشر ديناراً ونصف دينار ، فأمر أن يُكْفَنَ ويُشْتَرَى له مكان يُدفن فيه بخمسة دنانير ، ويقسم الباقي على بنيه ، وقال : يا بُنَيَّ والله ليس لى مال فأوصى لكم به ، ولكنى ما تركتُ لأحدٍ على تبعه ولا لأحدٍ ثار فى مالٍ ولا عرضٍ ولا دمٍ ، والله الخليفة عليكم . فقال له مسلمة : وما ذاك ياأمير المؤمنين أَوْخَيْرٌ من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : تأخذ من مالى ثلاثمائة دينار فنقسمها بينهم كما تريد ، قال عمر : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : ترد المال إلى من أخذ منه ! فإنه ليس بملكك ، قال : فبكى مُسَلِّمَةً عند ذلك !! .

□ أبناء عمر بن العزيز بعده ! :

وقيل : ما رُئى أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز إلا هو غنى ، ولقد شُهِدَ أحدهم وقد جَهَّز فى سبيل الله مائة فارس على مائة فرس من خالص ماله ! .

□ وأبناء مسلمة من بعده ! :

ولما حضرت مسلمة بن عبد الملك الوفاة - وقيل هشام بن عبد الملك - ترك أحد عشر ابناً أصاب كل واحد من تركته ألف ألف دينار ، ويقال : إنه

(*) استغنيا عن ذكر الفصل التاسع لما شابه من أخبار لا يصدقها عقل ، ولا جدوى من نشرها ، فلزم التويه .

مارؤى أحد منهم إلا هو فقير ، ولقد شوهده بعضهم وهو يوقد فى تنور الحمام بعد ذلك^(١) بسبع سنين .

□ عندما يزول الملك ! :

وعبد الله بن مروان - وهو آخر ملوك بنى أمية - قال : لما زال ملكنا وملكت بنو العباس هربت إلى أرض النوبة مع جمع من أصحابى ، فسمع بى ملك النوبة فجاءنى إلى المكان الذى كنت فيه ، فجلس على الأرض ولم يجلس على فراشى ، فقلت له : هلا تجلس على فراشنا أيها الملك ؛ فإنه لم يعتدلك^(٢) ههنا فراش ، فقال : لا ، قلت له : ولم ؟ قال : لأنى ملك وحقيق على الملك أن يتواضع إذا رفعه الله ! .

ثم قال : أخبرنى لم شربتم الخمر وهى محرمة عليكم ؟ .
ولم وطئتم الزروع بدوابكم والفساد محرم عليكم ؟ .
ولم استعملتم أوائى الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ؟ .
ولم لبستم الحرير وقد نهيت عنه على لسان نبيكم ؟ .

قال عبد الله : فقلت له : إنا لما قللت أنصارنا استعنا بقوم أعاجم دخلوا ديننا ففعلوا ما ذكره الملك على غرة منا ! .

فأطرق الملك ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليس الأمر على ما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم ، وظلمتم إذ ملكتم ؛ فسلبكم الله العز بذنوبكم ، ونقمة الله فيكم لم تبلغ مداها ولا وصلت غايتها ، وأنا أخاف أن يحل عليكم غضب من الله وأنتم فى أرضى فيصينى معكم ! والضيافة ثلاثة أيام فتزودوا فيها بما شئتم ، وارتحلوا فوالله لن تقيموا عندى بعدها !! .

□ العقلاء من النساء :

لما تزوج الحارث بن عوف الكندى الخنساء بنت ملجم وكانت ذات حسن وجمال فائق ، فلما زفت إليه أمسكتها أمها على باب الحمل ، وقالت : أى بنية ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، أو جودة حسب لتركها عندك

(١) أى يعمل لدى صاحب خَمام حيث يقوم بإشغال الوقود لتسخين الماء للاستحمام وهى من أدنى المهن .

(٢) لم يعم إعداد فراش لك من قبل ولم تبياً لاستقبالك بما يليق بك .

لما أعلمه من حُسْن أدبك ، وفضل حسبك ، وجودة عقلك .
أنى بُنيّة ، لو استغنت امرأة عن زوج لحاجة أيها إليها لكنت أغنى الناس
عنه ، ولكنهن للرجال خلغن ، كما أن الرجال لهن خلقوا ، وإنك خرجت من
العش الذى كنت فيه درجت ، ومن البيت الذى فيه نشأت إلى رجل لم تعرفيه
وقرين لم تألفيه^(١)، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى خصلاً منى
لتبلغى بها أمراً وتنشرى بها ذكراً .

يابنية عليك بحسن الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بالسمع والطاعة ففى
القناعة راحة للقلب ، وفى الطاعة رضى الزوج والرب ، والتفقد لموضع عينه
وأفنه^(٢)؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلاطيب ريح .
واعلمى يابنية أن الكُحل هو الحُسن الموجود ، والماء هو أطيّب الطيب
المفقود ، والرعاية لعياله والحفظ لماله ، ورعاية ماله وعياله حسن التدبير ،
وحفظ ماله حسن التقدير ، والتفقد لوقت طعامه ، والهدوء وقت منامه ، فإن
حر الجوع ملهب وتنغيض النوم مغضب ، ولا تفشين له سرّاً ، ولا تعصين
له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أخرجت
صدره ، ولا تظهرى الفرح إذا كان ترّحاً^(٣)، ولا الاكتئاب إذا كان فرحاً ،
ولئن زدتيه إعظماً زادك إكراماً ، وآثرى^(٤) هواه على هواك ! .
وعندما زفت إليه حظيت عنده وولدت منه أربعة ملوك وهم شرحبيل ،
وحجر ، ومسلمة ، ومعدى كرب^(٥) .

□ متى تمنى الحجاج أن الأرض تبتلعه ١٩ :

ولما قدم الحجاج بن يوسف الثقفى على الوليد بن عبد الملك - وهو يومئذ
خليفة - فوجده قد أصيب بابه وهو فى المقبرة ، وكان الحجاج يومئذ عليه
دُرْع وكنانة وهو متقلد بقوس عربية ، فعمد إلى قبر عبد الملك بن مروان
فسلم عليه وصلى ركعتين ، فلما ركب الوليد مشى الحجاج بين يديه ، فقال

(١) العُش الذى فيه درجت : بيت أهلك الذى حبوت فيه وكانت خطواتك الأولى أما القرين فالمراد
به الزوج الذى سيقترن بك ، ويعقد قرانه عليك .

(٢) تنبى باهتمام بالغ فواضع العينين والرؤية ، وأماكن العرق التى تكون مصدراً للروائح ! .

(٣) الترح : الحزن . (٤) آثرى : فضلى . (٥) انظر تحفة العروس مكتبة ابن سينا .

له الوليد : ياأبا محمد اركب ، فقال : دعنى ياأمير المؤمنين أستكثر فى المشى فإن ابن الزبير وابن الأشعث طالما شغلانى عنه ، وكان قد قتلها ، فعزم عليه أن يركب ، فركب ودخل الوليد إلى قصره فخفف ما كان عليه ، ثم أذن للحجاج أن يدخل فدخل وخلابه وطال حديثه معه !

فخرجت جارية من وراء الستر وساررتة ومضت ، فقال للحجاج : أتدرى ما قالته الجارية ياأبا محمد ؟ قال : لا ، قال : بعثت إلى أم البنين تقول لى ما نجالستك لهذا الأعرابى المشتعل فى سلاحه وأنت فى غلالة^(١)! فأعلمتها أنك الحجاج فراعها ذلك ، فقالت : والله ما أحب أن يخلو معك وقد قتل الخلق ! .

فقال الحجاج : دع عنك مفاكهة النساء يزخرف القول إنما المرأة ربحانة وليست بقهرمانة^(٢) فلا تطعهن فى غير ذلك فبوهنك ، ولا تشغلهن بغير زينتهن ، وإياك ومشاورتهن فإن رأيهن إلى^(٣) أفن وعزمهن إلى وهن ، واكفف عليهن أبصارهن بحجبك إياهن ، ولا تملك المرأة من الأمور ما تحاور نفسها ، ولا تطعها حين تشفع فى غيرها أبداً ، ولا تطل الخلوة معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وأبرز لفصلك .

ثم خرج ودخل الوليد على « أم البنين » زوجته فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : ياأمير المؤمنين أحب أن تأمره غداً - إن شاء الله - بالدخول على عند دخوله إليك ، قال : نعم ، فلما أصبح الحجاج أتى الوليد فسلم عليه فقال له : ياأبا محمد اذهب إلى أم البنين فسلم عليها واقض من حقها ما يجب ، فقال الحجاج : ياأمير المؤمنين أعفنى من ذلك ، قال : لأبد ، فهض الحجاج حتى تجاوز الستر فحجّب على الباب طويلاً ! ثم أذن له فدخل ولم يؤذن له فى الجلوس فبقى قائماً طويلاً ، فقالت : يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ ، والله لولا أنك أهون على الله تعالى من سائر خلقه ما ابتلاك برمى أحجار الكعبة ! ، ولا بقتل ابن الزبير وابن

(١) الغلالة : ثوب رقيق .

(٢) القهرمانة : مدبرة البيت ومتولية شئونه . قال فى المعجم الوسيط : ومنه القول المأثور : « المرأة ربحانة وليست بقهرمانة » .

(٣) الأفن : فساد الرأى بسبب نقص العقل ، والوهن الضعف .

الأشعث ، فأما ابن الزبير فهو أول مولود في الإسلام ، وأما ابن الأشعث فوالله لقد ولى عليك الهزائم حتى ضجرت^(١)، ولولا أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نادى في الشام وأنت في أضيّق من قراب من خيل ابن الأشعث ، وقد أظلتك رماحهم ، وفاجأك كفاحهم ما قويت عليه ، وما قمت .

وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من تركه لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فإن كنَّ يَنْفَرِجْنَ عن مثل ما انفرجت عنك أمك فما أحقه بالأخذ والقبول منك ! وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل لقولك ولا مُصَغِّر لمشورتك ! .

ثم نادى : أخرجوه عنى قاتله الله ! ، قال : فدفع وأخرج ، فمر على أمير المؤمنين الوليد ، فقال : يا أمير المؤمنين ألم أسألك أن تُعَفِّينِي من الدخول عليها؟! ، قال : فماذا قالت لك ؟ قال : والله ما سككت عنى حتى تمنيت أن الأرض تبتلعنى ! .

□ على رسلك يا هذا ! :

قال بعضهم : كان رجلٌ أشيب اللحية يسير ، فبينما هو يمشى إذ رأى امرأة تمشى ذات حُسن وجمال فقال لها : يا هذه إن كنت عازبة فأنا أتزوج بك ، وأدفعُ لك ما تختارين ! .

وإن كنت متزوجة فبارك الله لزوجك فيك ، فقالت : ليس لى زوج لكننى فى رأسى يَسِيرُ بياض^(٢) وأظنك تكره ذلك ، قال : نعم وتركها ، فقالت : على رسلك^(٣) يا هذا والله ما بلغت من العمر عشرين سنة ، ولا برأسى بياض ، وإنما أَعْلَمْتُكَ أنى أكره منك ما تكره منى .

[من أقوال الإمام على فى النساء]

قال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وقد ذكرت النساء عنده : « لا تتخذوا النساء على حَالٍ ، ولا تأمنوهن على مَالٍ ، ولا تدعوهن يدبرن

(١) ضجرت : مللت وضقت بأمرك وتبرمت .

(٢) بياض قليل فى شعر رأسى .

(٣) على رسلك : تمهل ، وتوقف ، ولا تنهّز فيما أنت فيه ! .

أمر العيال ؛ فإنهن إن تُركنَ وما يُردنَ أفسدنَ المسالك وأوردنَ المهالك ؛ فإننا وجدناهن لا ورعَ لهن عن شهوتهن ، يتلهفن على العصيان ، ويتمادين على الطغيان ، يُنكرن الكثير إذا مُنِعن القليل ، ينسين الخير ويذكرن الشر ، أما صوالحهن فغادرات ، وأما طوالجهن^(١) ففاجرات ، وأما المعصومات فهن المعدومات ، إن اتُئمنَ على مالٍ ضاع ، أو سرٌّ شاع ، فاستعيذوا بالله من خيارهن وكونوا من شرارهن على حذر ! » .

□ من تختار لولاية الناس ! :

وقال يحيى بن خالد لولديه جعفر والفضل : يا بني إنكم لاتستغنون فيما تلبّيان من الأعمال غن العمال والكتاب ؛ فلا تستعينوا إلا بالأشراف ، وذوى الأقدار فإن النعمة عليهم أبقي ، وهى بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر ، والسئل من الناس بخلاف ذلك .

□ الثقلاء مصدر عذاب للنفوس ! :

كان حماد بن سلمة إذا رأى من يستقله يقول : ﴿ رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا أَلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٢]

□ آية نزلت فيهم ! :

وقالت عائشة - رضى الله عنها - : نزلت آية في الثقلاء وهى : ﴿ فَإِذَا طَعْنْتُمْ فَانْشَرُوا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

□ سؤال عنهم ! :

وقيل لجالينوس^(٢) : لم كان الرجل الثقيل أثقل من حَمَل الميت ؟ قال : لأن حمل الميت ثقله على الأرض ، والرجل الثقيل ثقله على القلب .

□ هدية ثقيل ! :

وأهدى رجل ثقيل إلى رجل جملًا ، فقال فيه هذه الأبيات :

يَا قَادِمًا أَهْدَى جَمَلٌ خُذْ وَارْتَحِلْ أَلْقَى جَمَلٌ

(١) الطوايح : عكس الصوالح . ومن لا خير فيه .
(٢) جالينوس أبو الطب في عصره ، وله مؤلفات في الطب والفلسفة سردها ابن النديم في الفهرست (ص ٤٠٢ - ٤٠٣) .

قال : وما أوقارها ؟ قلت : زبيبة وعسل^(١)
 قال : فمن يقودها ؟ قلت له : ألفا بطر
 قال : ومن يسوقها ؟ قلت له : ألفا رجل
 قال : فما لباسهم ؟ قلت : خلبي وخلل
 قال : وما سلاحهم ؟ قلت : سيف وأسل^(٢)
 قال : عبيد لي إذن ؟ قلت : عبيد وخلول^(٣)
 قال : بهذا فاكذبوا عليكم لي إذن سجل
 قلت له : ألف سجل واضمن لنا أن نرتحل
 قال : ثرى أضجرتكم ؟^(٤) قلت : أجل ثم أجل^(٥)
 قال : ترى أثقلتكم ؟ قلت : نعم فوق الثقل !
 قال : فإني راحل قلت : العجل ثم العجل
 ياجلاً من جبل في جبل فوق جبل

□ هكذا الثقيل لا يكاد يُسَلَّم حتى يعود ! :

وقيل في ثقل آخر هذين البيتين :

وثقيل قد سئما شخصه عهدناه ملحاً مبرماً
 ثقل الوطأة في زورته ثم ما ودع حتى سلماً

□ هل يغني العقل عن المشورة أو الزوج ؟ :

قال بُزْجَمَهْر^(٥) : أعقل ما يكون من الرجال لاغنى له عن رأى ذى
 لبٍّ ومشاورة ذى عقل ، وأعقل ما يكون من النساء لاغنى لها عن زوج .

□ هل للنساء أمان ! :

وجدت عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال : لما ملك أردشير بلاد العجم
 واستوثق له الأمر ، ودانت له ملوك الطوائف ، حاصر ملك السورانية ، وكان

(١) أوقارها : أحاطها جمع وقر .

(٢) الأسل : الرماح . (٣) خلول : خدم .

(٤) أضجرتكم : سببت لكم ضيقاً وملاً .

(٥) هو ابن البختكان ، حكيم فارسي .

ملكاً عظيماً تحصن. في مدينة يقال لها « الحصر » وأقام أردشير يحاصر المدينة زمناً طويلاً إلى أن أيس منها ، ولم يقدر عليها وأشرفت ابنة الملك تنظر إلى عسكره ، وكان أردشير شاباً حسناً ، فرأته ابنة الملك فوقع حبه في قلبها ، فأخذت^(١) نُشَابَةً وكتبت عليها : إن أنت شرطت على نفسك أن تَتَزَوَّجَنِي دَلَّلْتُكَ على موضع تأخذ منه المدينة بأخف كلفة وأيسر حيلة ، ثم رمت بالنشابة إليه ، فأخذها أردشير وقرأها وكتب عليها : لك ذلك وكل ما تريدينه ثم رمى بها إليها ، فكتبت له ، ودلته على موضع في المدينة ، وعرفته كيف يأتي إليها وكيف يفعل في دخولها ، فأرسل عسكره إلى المكان الذي دلته عليه ، وفعل ما قالت ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها وملك المدينة ، وقتل الملك ووفى ابنته كما شرط لها ، فبينما هي ذات ليلة على فراشها إذ قلقت قلقاً شديداً ، ولم تنم ، فقال لها أردشير : ما بالك لا تنامين الليلة ؟ فقالت : تغير في جسدي وأحس بشيء يؤلمني في فراشي ، فنظر الملك في فراشها فإذا فيه ورقة آس قد أثرت- في رقة جلدها وبشرتها ونعومة جسدها ، فقال لها أردشير : ما كان أباك يطعمك ؟ قالت : كان أُنَى يطعمني الزبد والشهد والمخ ! .

فقال لها : ويلك ، وهل تجدين أحداً يبلغ بك من الكرامة واللطف إلى هذا الحد وكان جزاؤه عندك ما علمته منك ! ، فلست آمنك بعد اليوم ، ثم أمر بها أن يعقد شعرها في ذيل فرس شديد الجرى ، ففعل بها وأطلق الفرس فتساقطت أعضاؤها وهكذا كان جزاء عديمة الوفاء !
والحمد لله أولاً وأخيراً

قال ناسخه :

وقد تم نسخ هذه النسخة ليلة الاثنين لخمس خلت من شهر ذى القعدة سنة ١٢٢٠ هـ على يد أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد وقال محققه :
وقد علقت عليه ، وعنونت لقصصه ، وضبطت شواهد بعد الرجوع إلى مصادر تلك الأخبار ، وكان ذلك في السادس عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٤١٣ هـ جرية والله نعم الموفق ..

محمد إبراهيم سليم

(١) النُشَابَةُ واحدة النُشَاب وهو التبل .

(٢) الآس : شجر دائم الخضرة يبضى الورق ، أبيض الزهر .